لسانيات النص

خيرة حمر العين

1 - لسانيات النص

إن اللسانياتية بطرحها إشكالية العلاقة بين المشار والمشار إليه، أو بين الدال والمدلول، في علاقات اعتباطية، لم تكتف بالاشارة إلى العلاقة بين الأسماء والمسميات ، أو بين الأشياء والكلمات، وبالتالي بين الصور والمفهومات. وإنما تحاول اشراك الوعي الابداعي في تحمل هذه العلاقة ، لاسيما وأن صلة النص الابداعي بالعالم الخارجي هي في الأصل ذات ارتباط بمشكلة الصلة بين اللغة والعالم.

غير أنه يبدو، أن الدراسات اللغوية الحديثة لم تتجاوز التقسيم اللغوي الذي أثاره دو سوسير لغة / كلام على اعتبار أن التمييز الأساسي الذي يقيمه بنفسه هو تمييز بين " اللغة بوصفها نظاماً إشارياً " و" اللغة بوصفها وسيلة اتصال ". وبذلك لم تنهض جل الدراسات التي تلت جهود سوسير إلا على ثنائيات مشابهة كالتمييز بين الوظيفة النقلية للغة، والوظيفة التفاعلية ، والدلالية ، والتواصلية...

غير أن نظرية النحو التوليدي التي انفرد بها شومسكي استطاعت أن تعمق البحث اللغوي وذلك من خلال تأثره بفلسفة الظاهر والباطن بحيث توصل إلى فرق جوهري بين "ما سماه" القدرة اللغوية competence و" الأداء اللغوي " performance لدى الانسان. الأداء هو طريقة كتابة جملة بسيطة أو مركبة، على مستوى الحديث الجاري... أما المقصود بالقدرة فهو أنه مادام الأداء يتضمن قواعد لم يتلقها الانسان من قبل ، يمكن افتراض أن الانسان يمتلك بفطرته عدة قواعد صورية

أولية يثيرها من كمونها ما اكتسبه وتعلمه من قواعد النحو وتركيب الجمل الصحيحة "[1] فاكتساب القدرة اللغوية هو نتاج نظام ما قبلي وهنا تخرج اللغة عن حيزها المكتسب لتدخل حيز الابداع. ونحن لا نريد أن نعرض للنظرية التوليدية لما تمتلكه من إمكانات تحليلية لمستويات القول من أصغر وحدة (مفردة) إلى أكبر وحدة (الخطاب) ولكننا نشير فقط إلى أن التطور الحاصل الذي شهدته اللسانيات المعاصرة، يبقى لهذه النظرية فيه باع كبير بخاصة في أثناء تركيزها على القدرة اللغوية الكامنة في الانتاج اللغوي ، والفهم ، والتلقي ، والتأويل . وفي هذا الشــأن فإن الحدس اللغوي " يؤدي في منظور شومسكي دوراً كشفياً. فهو إما أن يكشف عن الالتباس في بعض الجمل، وأما أن يبين التعادل القائم بينهما"[2] ومن ثم فإن اللغة لا تغتدي مجرد حامل لمجموع الجمل والمفردات المولدة وإنما تصير محصول تفاعل لغوي في إطار نظام لسانياتي يستمد إجراءاته من مبادىء جمة تستمد معطياتها النظرية من طبيعة اللغة ذاتها.

وعلى الرغم من كون النظرية التوليدية لم تكن مجرد تعميمات أو إطراءات غير مؤسسة إلا أنها تظــل تمثل إجراء نقدياً يحمــل افتراضات منهجية وعلمية متقدمة تدعو إلى مزيد من التأمل العميق، والفحص الدقيق.

وبذلك فإن مصدر السؤال يظل قائماً أمام راهن الحداثة من حيث كونها سؤال الالتباس والفهم ، ومحض افتراضات تظل دائماً عرضة للتساؤل والنقد. غير أن ذلك لا يعني أن اللسانيات أخفقت أو أفلحت في تحليل الخطاب بل هي تشكل جانباً نظرياً هاماً، ومشروعاً نقدياً قابلاً للتجريب مفتوحاً على القراءة والتعدد.

لقد اجتهد الوعي الانساني – منذ أن استكشف اللغة بما هي

وسيط لادراك العالم الخارجي - في فهم هذه الظاهرة. وإذا كانت جهود اللسانياتيين الغربيين قد ألحت على فكرة التقابل الثنائي: دال/ مدلول، لغة / كلام.... إلى غيرها من الثنائيات، فإن الوعي العربي كان له السبق في بعث هذه الثنائيات التي تعبر عن مستوى فكري ومنهجي، ورؤية معرفية تأملية وكشفية تتجاوز ظاهر الثنائية إلى مستوى عميق من الوعي التفكيكي.

وإذا كانت طبيعة هذه الرؤية قد انسحبت إلى غيرها ، فإن ذلك لا يعني أنها لا تختلف في جوهر تصورها عن جدل الثنائيات التي توحي بتعددية المعنى .. وإحالته إلى أبعاد رمزية يكون للملتقى فيه جانب من الفهم والتأويل والتحليل . وقد أوضح ابن عربي .. هذه العلاقة من خلال تمييزه بين المضمون الأول الذي هو النص من حيث دلالته الوضعية ، والمضمون الثاني الذي هو النص من حيث دلالته الرمزية .

ويسمى وجه الرسالة الأول (العبارة) في حين يسمى وجه الرسالة الثاني " الإشارة "[3].

ولم تقتصر الجهود النظرية لدى المتصوفة على النصوص القرآنية وإنما امتدت لتشمل فنون القول الشعري لما فيه من ثراء معنوي وإيحائي يتطلب تصوراً خاصاً لحل شفراته وفهمها واستكشاف تعددها الدلالي، وما تحتمله من تنوع كلام. ولم تقف تلك الجهود عند هذا الحد، ويتعلق الأمر بالدلالة المبتكرة للألفاظ التي انتهى إليها ابن عربي الذي " يقترح للمفردة معنى جديداً لا يدخل ضمن دلالتها الايحائية، وبذلك فهو يدشن ثورة فعلية خطيرة في مجال اللغة والبلاغة "[3] وهكذا تصبح الرسالة أو الملفوظ يوحي بأكثر من دلالة واحدة ويمكن التمثيل لذلك:

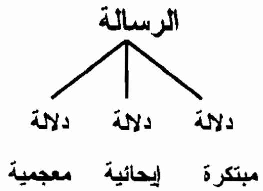

ولعل ذلك ما أفادت به الدراسات النقدية الحديثة التي جاء بها بارت في فهمه للنص على أنه كائن يحيا بوفرة الكنايات. وما أكد عليه ابن عربي قبله من أن اللغة فيض من الاستعارات والمجازات اللامتناهية، وبإمكاننا إعادة تسمية الأشياء بغير أسمائها لأن الأمر متعلق بالتواصل الذي لا يقوم بثبات الدلالة الواحدة للمفردة، وإنما يجعلها تتغير باستمرار.

وهكذا، فإن التحليل اللغوي المعاصر بدوره، لا يكتفي بدلالة المطابقة وهو الأمر الذي أفضى إلى التسليم بوجود مستويين للنص هما مستوى التعبير (الدوال) ومستوى المحتوى (أو المدلولات) وتلاحم هذين المستويين هو ما يؤلف الاشارة أو مجموعة الاشارات. ومع ذلك، فإن الرسالة التي تتألف طبقاً لهذا الشكل الأولي، يمكن - إذا ما فككت أو وسعت - أن تصير هي نفسها مستوى تعبيرياً جديداً لرسالة ثانية، تكون امتداداً لها، أي بوجيز القول، تصير "اشارة" الرسالة الأولى " دالاً" للرسالة الثانية "(5). ولا تختلف هذه الرؤية عن تصور ابن عربي

لا شك في أن أي معرفة نقدية تستدعي استقصاء ممارسة محتوى البنى النصية في ترابطها الداخلي الكلي لصنع الخطاب، ولقد كان النقد ولايزال يسعى لأن يحقق بصماته في هذا المجال، لدرجة أن أي دراسة نقدية - هي الآن - تنكب على الروابط التي تجمع الدال بالمدلول فيما يشكله الدليل اللساني، حتى أصبح هذا التوجه مثار اهتمام جميع الدراسات النقدية المعاصرة.

ومما لا ريب فيه أن وحدة جوهر الدليل اللساني يشكل انعطافاً جديداً في ميدان النقد الحديث، حين تحول النص إلى نظام خاص، لـــه استقلاليته، ودلالته، على الرغم مما يحتويه من مضمون واحد، إلا أن صيغه المعبرة عنه بطرقه المختلفة تجعله متميز الخصائص والاشارات يكون من شأنها أن تنتقل بالنص من سلطة " المعيار" إلى سلطة "القيمة"

في ذات النص، بحيث صار يمتلك سلطته بنفسه بما تحتويه قابلية التمعين " la signifiance " في نسيجها الدلالي المحكم.

غير أن هذا الانعطاف وإن شكل مساراً جديداً، وأحدث القطيعة مع مختلف الممارسات النقدية التقليدية، فإنه لم يخل من بعض التساؤلات والتناقضات التي فتحت فوهات على النص والعالم، والمعنى والمرجع، والواقع والأنا، والدلالة والتصور.

وهكذا فقد حاول النقد الجديد الافادة من المنهج اللسانياتي الذي يبحث في التطابق بين الذهن والعالم دون الاكتفاء " بمعاينة خارجية للعلاقة القائمة بين واقع موضوعي ، وسلوك انساني "[(6)] غير أن هذا لا يعبر إلا عن التجليات في مظهرها الخارجي، التي تتصورها الذهنية. ومن أجل ذلك دعا بنفست إلى الابتعاد عن كل ما هو ظاهري وعرضي، والبحث في التجليات الباطنية التي تكشف عن جوهر العلائق بين الأشياء والمسميات ، أو بين الدوال والمدلولات بوصفها علاقات ضرورية . ومثل هذا الموقف لا يعطل اعتباطية الدليل التي يقول بها سوسير[(*)] كونها لا تحمل أي رابط طبيعي في الواقع . ولكنه يؤكد اعتباطية العلاقة بين العلامة والمرجع على عكس العلاقة بين الدال والمدلول التي تبقى معطلة في نظره وبالمقابل نجد الألسنيين الأسلوبيين لا يحتفلون برأي بنفست إذ " يعتبرون أن تعددية المعاني (المدلولات) في علامة واحدة ذات وجه دالي واحد، وهي في أساس الخلق الأدبي ، والشعري منه خاصة، والصور البيانية ناتجة عن عملية تحرر الدال من مدلول محدد واحد "[(7)] وبذلك يصبح النص علامة تتجاوز الدلالة فيها، المفردة، ويصير الأدب لغة ، أو نظاماً لغوياً ، يحتضن تعدداً دلالياً لامتناهياً.

وهكذا فقد أحدث المنعطف اللسانياتي تحولاً نقدياً، تمثل بالخصوص في تصور جمالية النص عبارة عن حمولة معرفية تتجدد

باستمرار وتكون مصدراً لاستيعاب معان ودلالات متعددة. وقد اختزل بارت R. Barthes هذا التحول في قوله " ليس الأدب إلا لغة أي أنه نظام من الاشارات : ليست كينونته في محتواه، ولكنه في هذا النظام "[8] الذي يحيل النص إلى ذاته أي إلى سياقه اللغوي الذي يشكل شبكة علاقاته الداخلية وأنظمته الاشارية ، التي تدخل في صميم بنيته التحتية بوصفها عناصر نصية، وبذلك " يرتبط النص من حيث هو لغة مع اللسانيات بعلاقة تصير فيها اللسانيات نفسها لغة دراسة نتحدث بها عن النص كلغة أولى، ولكن هذه العلاقة لا تجعل من نظام النص نظاماً مطابقاً لنظام اللسانياتية لأن طبيعة العلاقة بينهما تقوم على المجاورة والتشابه لا على التقمص والمطابقة "[9] ومن شأن هذه العلاقة التوجه، أو السعي إلى اكتشاف المعنى الباطني أو المعنى الرمزي للغة الذي يتماهى مع الرموز التعبيرية في دلالاتها الايحائية من حيث أن النص الأدبي مؤسس من علاقات غيابية وأخرى حضورية . فكما يرى تودوروف " فإن العلاقات الغيابية علاقات معنى وترميز . فهذا الدال " يدل " على ذلك المدلول وهذا الحدث يستدعي حدثاً آخر، وهذا الفصل الروائي يرمز إلى فكرة ما. وذاك الفصل بصور نفسية ما. أما العلاقات الحضورية فهي علاقات تشكيل وبناء[10]. يعني أن هناك علاقات دالية ترتبط بالعلامة المادية أو [الدال]، وأخرى علاقات دلالية ترتبط بالعلامة اللامادية [المدلول].

وحتى لا تنصرف الرؤية إلى حدود التقابل والتمايز بين المعاني الحقيقية، والمعاني المتضمنة أوالمشتقة، يستلهم تودوروف التمفصل الدلالي داخل المنظومة النصية ، ليميز بين " صيرورة الدلالية (حيث يستدعي الدال المدلول) وصيرورة الترميز حيث يرمز مدلول أوّل إلى مدلول ثان . إن الدلالة موجودة في المفردات (في جداول الكلمات) أما الترميز فيعتمل في الملفوظ داخل التركيب "[11] ليتحول السؤال النقدي إلى البحث عن كيفيات تشكل النص : كيف ركّب ؟ وليس مما ركّب ؟

دون أن يسأل عن اختبارات المعنى التي تركز بالأساس على العلاقات القائمة بين عناصر الجمل في قواعدها الشكلية التي أوجدتها، على الطريقة التي تسمح بخلق انسجام بين عناصر الكلمة في أركانها الإسمية، الفعلية، الحرفية ، في تكاملها الوظيفي المؤدي إلى المعنى المراد .

وعلى هذا فإن اللسانيات لا تبحث في مطلق النص من حيث ماهية المعنى أو لامحدوديته ، وإنما تبحث في بناه التركيبية. وأن جوهر النص هو في نظام هذه البنيات . ومن ثم كان سؤال المقاربة النقدية ليس سؤالاً عن المعنى وإنما عن كيفيات إضاءته والاستدلال عليه وفق علاقة متباينة لتحديد المعنى السياقي الذي يؤدي وظيفة الكلمة في مدلولها الاتساعي . وقد تمثلت الدراسات اللسانياتية السياق اللغوي، وتموضعت ضمنه بوصفه سياقاً متماثلاً " homogéne " مع النص المقروء وصار البحث في معرفة النص لا ينفصل عن سياق اللغة التي تموضع فيها. غير أنها لغة باحثة ومستقصية ومتسائلة من خلال إدراكها لنسيج العلاقات بين اللفظ وسياقه اللغوي بغية استخراج محتواه الدلالي أو ما يطلق عليه في الدراسات الألسنية بالمعنى الايمائي(*) الذي يحمله باطن اللفظ.

لم تعد اللغة مجرد أداة للتوصيل في: الارسالية ←——— الخطاب ←——— التلقي. ولم تنحصر غايتها في هذا المبدأ، بل تجاوزته إلى غاية أسمى هي إعادة الخلق والتشكيل. وقد أسهمت النظرية التوليدية في تطور الدراسات النقدية وتطور مفهوم الخطاب بتحرر مضمونه من الاخبارية والتقريرية. ولم تعد اللغة فيه مجرد أداة وإنما صارت بحثاً معرفياً تتقاطع فيه أنظمة " دلالات " محدودة وأنظمة " مدلولات " لامحدودة من خلال تعدد مستويات النص وأنظمته الاشارية.

إن السيمائية بوصفها ميداناً تخاطبياً مجــرداً ، لم تستكشف قواعد التحكم التي أرستها التوالدية التحويلية ونعني بذلك القدرة الكامنة " competence " والانجاز الفعلي " performance " كما صاغها شومسكي الذي يقول : " إن امتلاك لغة معينة يعني القدرة على استيعابها وإنتاج اشارة تحمل التفسير الدلالي الذي نريده "[12] وثمة عوامل لا لغوية تتحكم بهذا الامتلاك. وهذا يعني أن اللسانياتية تحول الواقع لا بفصله عن مسمياته، وإنما بجعله " متصوراً ذهنياً تستدعيه اللغة ليكون دليلاً على ما تتضمنه، دون أن يكون بينها وبين الشيء في ذاته أي رابط من المسميات "[13].

والواقع أن قراءة النص من منظور لسانياتي من خلال مكوناته الدلالية والتركيبية أو ما يصطلح على تسميتها بالقراءة التوليدية التحويلية هي بمثابة مقاربة للمنتوج المعطى في النص بتحويله إلى منتوج آخر محتمل على اعتبار " أن قراءة النص بهذا المفهوم هي قراءة للواقع أيضاً ولكن بطريقة تحويلية يصير الواقع معها لغة تجعل القارىء يحس على أنه أثر يبحث عنه من خلال متغيرات لا تنتهي تنتجها قوانين محدودة وثابتة "[14] وحيث كان المسعى اللسانياتي جاداً ومستقصياً، فقد أنتج تصوراته من خلال محاولته إدراك المأزق اللغوي داخل الخطاب الأدبي، إلا أن محاولته هذه ركزت على مبادىء النص، أو متحكماته اللغوية [اللفظية - التركيبية - الدلالية] دون اكتناه متعمق لبناه الباطنية ودلالاته المتعددة والمحتـملة وفي ذلك يــرى تودوروف أن "المقاربة اللســانياتية تشــكو من نقصين: فهي تكتفي من جهــة "بالدلالة " وحدها بالمعنى الحصري للكلمة، تاركة جانباً قضايا الايحاء والاستعمال اللعبي للغة واعتماد الاستعارة، وهي من جهة أخرى لا تتجاوز حدود الجملة أبداً. والجملة عندهم هي الوحدة اللسانياتية

الأساسية "[15] إلا أن ذلك لا ينقص من إرادة اللسانيات النصية أو الأدبية في رد النص إلى سياقه اللغوي أو علة ذاته للكشف عن مكوناته، والمرتبطة أساساً بالقدرة على أمتلاك اللغة واستيعابها ، وانتاج محمول رمزي لتفسيرها ومرتبطة أيضاً بحركية تعبيرية تتجاوز هذه اللغة وتستلهم مقدرتها من التجاذب الدلالي بين مختلف مستويات النص.

وقد أشارت اللسانيات المعاصرة إلى أن الانسجام في النصوص ليس معطى قبلياً، ولكن القراءة هي التي تثير فيه انسجامه. فالمنطق اللسانياتي في سعيه إلى العثور عن انسجام النصوص ، يركز على استجابة القراء وتأويلاتهم بما تنفرد به النصوص من معطيات بإمكان القارىء أن يعيد تركيبها ذلك أن " محلل الخطاب لا يهدف إلى وضع قواعد صارمة وإنما إلى تتبع مظهر خطابي معين للوقوف على درجة تكراره، من أجل صياغة إطراده، بمعنى أن هدفه هو الوصول إلى إطرادات وليس إلى قواعد معيارية "[16] فليس الغرض من اللسانيات النصية هو التعرف إلى مدى قابلية هذا المنهج للمقاربة النقدية أو عدمه، وإنما الغرض هو النظر إلى هذا المنهج في ضوء الممارسات التطبيقية التي تتعامل مع الوحدات اللغوية ضمن ما تنتجه من دلالات ضمن سياق لغوي معين.

إن الاشكالية التي سعينا إلى الخوض فيها مازالت تدخل ضمن مبحث نقدي شامل يرتبط بالنص ، والدلالة ، والتواصل ، والتلقي وتبقى مثل هذه الطروح النظرية والمعطيات المعرفية تقدم نفسها بوصفها مشروعاً لقراءة أو لمقاربة نقدية لها نظامها الذي تنسجم معه، وتحاول من خلاله معرفة جوهرية بالنص. فهل استطاع النقد العربي الحديث استبطان المدلول الغائب الذي لا يتأتى دون مطارحة الوعي النقدي لسؤالات تتوغل في البنى والأنساق وتستخلص بعدها النظري الذي بإمكانه مواكبة فاعلية النص ؟

الهوامش

1 ـ ينظر: محمود فهمي زيدان: في فلسفة اللغة، دار النهضة 1985، ص 142، 143 .

2 ـ منذر عياشي: النظرية التوليدية ومناهج البحث عند شومسكي (مقال) الفكر العربي المعاصر، ع 40/ 1986، ص 34.

3 - ينظر سعيد الغانمي : أقنعة النص ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، 1911 ، ص 89 .

4 ـ ينظر: المرجع السابق، ص 92.

5 ـ ينظر: اللغة والخطاب الأدبي، مجموعة من الباحثين، تر: سعيد الغانمي، ص 55.

6 ـ اميل بنفست: طبيعة الدليل اللساني، تر: سعيد بن كراد/ العرب والفكر العالمي ع 5/ 89/ ص 119.

(*) ـ لسانيات سوسير هي أول محاولة لتأسيس منهج نظري يقوم بالأساس على الثنائيات الضدية لغة/ كلام، علامة/ مرجع، دال/ مدلول. ويرى ان مادة الألسنية هي العلامة أو الدليل، وليس المرجع الذي يشير إليه. ويرى أيضاً أن العلامة لا تربط بين اسم وشيء، بل هي انصهار صورة سمعية أو صوتية [الدال] وصورة ذهنية أو مفهوم [المدلول]، وقد أسقط النظام الألسني على مختلف النظم الحياتية. وفي حقل النقد الأدبي الحديث ينظر إلى النص كنظام مرجعه في ذاته[التراكيب، المفردات، الصور، الإيقاعات...] وعلاقاتها.

7 ـ جورج دورليان: بحثاً عن وجهي سوسير: الفكر العربي المعاصر، ع 30 ـ 31 سنة 1984، ص 124.

8 ـ ينظر: منذر العياشي: الخطاب الأدبي ولسانيات النص/ مجلة المعرفة، ع 200 ـ 201/ سنة 1987، ص 13.

9 ـ ينظر: المرجع نفسه، ص 9.

10 ـ تزفيطان تودوروف: الشعرية، تر: شكري المبخوت، ورجاء بن سلامة، دار طوبقال ـ المغرب 1987. ط 1، ص 31.

11 ـ تودوروف: الشعرية، ص 33.

(*) ـ لعل ابن جني هو أول من أثار التفرقة بين تصريح اللفظ وإيمائه، وذلك في باب الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني والذي اعتبره من أشرف فصول العربية مستشهداً في ذلك بأبيات منكراً عنها المعنى الخارجي كما جاء في قوله:... (أطراف الأحاديث) وحيا خفيا ورمزاً حلواً، ألا ترى أنه يريد بأطرافها إلى ما يتعاطاه المحبون.... أ/ 220 الخصائص.

12 ـ ينظر: فؤاد أبو منصور: النقد البنيوي الحديث، ص 50.

13 ـ د. منذر العياشي: الخطاب الأدبي ولسانيات النص، ص 25.

14 ـ المرجع نفسه، ص 21.

15 ـ تودوروف: الشعرية، ص 33.

16 ـ محمد خطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب . المركز الثقافي العربي، 1991، ص 49.

* * *